ابتسمْ للصورة!

• ميرا الكعبي*

في ليلة عيد الميلاد، كنتُ وحيدةً أتسكّع في الطرقات الصقيعيّة، والأسواقِ المكتظّة بالوجوه الصاخبة، أبحث عن سلوى لوحدتي بين الدببة الثلجيّة المنصوبة على قارعة الطريق.

عرّجتُ بالمصادفة على دكان صغير لالتقاط الصور الفوتوغرافيّة.

خطر ببالي خاطر: أن أدّلف إلى الدكّان، ألتقط صورة، لأرسلها إلى عائلتي في بلدي البعيد.

قابلني المصوّر بابتسامة لبقة، ثم أخذني جانبًا إلى حجرة التصوير المتواضعة. سألني كيف أودّ أن تكون صورتي. أخبرتُه أنّني أريدها عاديّة، تُظهرني كما أنا، حتى أرسلها إلى عائلتي تذكارًا.

صَمَتَ. بدا عليه الاستغراق في التفكير، ثم عدّل من وضع الكاميرا، وأضاء المصابيحَ الكاشفة بعد أن وجّهها نحوي. وقال: «ابتسمي...»

أَبْتسم؟ حسنًا، سهل جدّاً. ومددتُ شفتيّ أقصى ما أستطيع، وفتحتُ فمي لتظهر أسناني. لكنّ المصوّر ثار عليّ فجأة.

ـ ما هذا؟ قلتُ ابتسامة!

ـ حسنًا.. حسنًا، كيف؟ بدون أسنان.. حسنًا.

وأطبقتُ شفتيّ على أسناني، وظللتُ محتفظةً بوضعي. لكنّه ثار عليّ من جديد، وقال إنّني أبدو كبهلوان يحاول أن يُضحك الأطفال.

وحاولتُ... وحاول هو أن يعلّمني كيف أبتسم. أسمعني جميعَ الطرائف التي يعرفها. لكنّني لم أبتسم! أخيرًا، أَحْضر لي نماذجَ من صور مختلفة التُقطتْ لأشخاص مختلفين، وقال لي حاولي أن تقلّديهم.

وحاولتُ...

وتأهّب هو لتصويري. حتى إذا جاء العدُّ التنازليّ لالتقاط الصورة، عطستُ!

وأعاد الكرّة.

وجحظتْ عيناي عند إضاءة الفلاش.

ومرةً أغمضتُ عينيّ.

ومرةً... ومرةً...

إلى أن توقّفَ عن التقاط المزيد من الصور، وأخبرني أنّ التصنُّع لن يجدي معي، وأنّ عليّ أنّ أتذكّر آخرَ مناسبةٍ مررتُ بها لأتخيّل نفسي أحياها من جديد.

أعجبتني الفكرة. وبدأتُ أستعيد آخرَ مناسبةٍ سعيدة أَذْكرها. كانت حفلَ تخرُّجي من الجامعة بتقدير «امتياز،» قبيل هجرتي بأسابيع. كانت فرحةُ عائلتي بي لا توصف. وهنا بدأتْ دموعي تتساقط رغمًا عني أمام عدسة الكاميرا.

بدا على المصوّر الإعياء، وأخذ يضرب كفّاً بكفّ. قال: «أهكذا كانت أوقاتك السعيدة؟!» ثم أطفأ المصابيح، وأَغْلق الكاميرا.

حاولتُ أن أقنعه بأن يلتقط لي صورةً بلا ابتسامة، لأنّي لا أُحْسن فنّ الابتسام. تذرّعتُ بأنّني أنتمي إلى شعبٍ يبكي في أفراحه وأحزانه. وجرّبتُ أن أُسمعه شيئًا من مراثينا وحسراتنا على الأمجاد الغابرة. لم يفهم شيئًا، لكنّه اقتنع بأن يصوّرني كما أنا.

---

* ـ كاتبة شابة من المملكة العربيّة السعوديّة.

وجلستُ. وحدّقتُ إلى عدسة الكاميرا الدائريّة. حدّقتُ إليها بلا ابتسامة.. بلا شيء. وبينما كان يعيد تهيئة الكاميرا، أخذتُ أتسلّى بالنظر إلى الصور المعلّقة في الحجرة. كلُّها كانت ذات وجوه جميلة باسمة حلوة. أشعر بها تحدِّق إليَّ وتبتسم لي. تخيّلتُ صورتي بينها كيف تكون. لا بدّ أنّها ستكون صورة باهتة بائسة.

من أعماقي المتحجِّرة، رغمًا عنّي انطلقتْ ضحكةٌ مجنونة، تلتْها أخرى فأخرى. كان يهيّأ لي أنّني أرى وجوهًا كثيرة باسمة تحيط بي وتقول «ابتسمي.. ابتسمي،» وأنا أصيح بأعلى صوتي: «لا أعرف، لا أعرف.» وأنْخرط في موجة ضحك أخرى، وأصيح «لا أعرف، اتركوني وشأني،» وأَضْحك، وأشعر مع الضحك بأنفاسي تختنق.

لا أدري ماذا حدث بعدها، لكنّني أفقتُ من موجة الضحك، لأجد المصوِّر قد لملم عدّتَه بصمت وغادر المكان.

بعد أيام قليلة، وصلني بواسطة البريد مغلَّفٌ بداخله صوري... مع رسالةٍ من المصوِّر ينْبئني فيها أنّه سيعتزل مهنةَ التصوير، ليَدْرس الأنثروبولوجيا العربيّة.

كانت عبارةً عن مجموعة صور من التعبيرات المتناقضة، أبكي في إحداها، وأضحك في أخرى. تحيّرتُ في أيٍّ منها أُرسل. ثم وضعتُها كلَّها في مظروف كبير، وكتبتُ على ظهره:

«إلى الوطن العربيّ...

إلى عائلتي... مع التحيّة!»

الدمام